هوية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية

د/ حكيمة سبيعي
جامعة بسكرة

الملخّــص:

يهدف هذا المقال إلى رصد أهم العوامل المؤدية إلى تفشـــي ظـــاهرة الكتابـــة باللغـــة الفرنســـية رغـــم أن الاستعمار قد ولى وانتهى، كما يبـــين هوية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية.

ولقد لعبت الثورة دورا كبيـــرا في حياة الشعب الجزائـــري، وشـــملت العديد من مجالات الحياة، وقـــام بهـــا الشعب الجزائري رغبة وإصرار منـــه لطرد المستعمر، وذلك من أجل التغير والخروج من الظلام الـــذي فرضـــته فرنسا عليه، فكانت الثورة بذلك صراع مستمر من أجل الحريـــة، والمطالبـــة بالحقوق الإنسانية، وكان ثمـــن ذلـــك موت الآلاف الشهداء، وكـــان العـــزم موجودا في روح كل جزائري حيـــث حقق به انتصارات عظيمة، فـــالتغيير كان تغييرا جذريا شاملا فـــي جميـــع الميادين.

Abstract:

This article aims to monitor the most important factors leading to the spread of the phenomenon of writing in French, despite the fact that colonialism is over and over.

I've played the revolution a major role in the life of the Algerian people, and included many areas of life, and carried out by the Algerian people's desire and determination it to expel the colonizer, in order to change and get out of the darkness imposed by France upon, was the revolution that constant struggle for freedom, and to demand human rights, and the price of it was the death of thousands of martyrs, and it was determined spirit is present in all Algerian, where it has achieved great victories, change has been a radical change in a comprehensive all fields.

مقدمة:

إن المتتبع لتاريخ الجزائر إبان الاحتلال يمكنه إدراك أن فرنسا فرضت اللغة الفرنسية لغة للتعليم والثقافة وحاربوا العربية وحرموها، وأصبحت بالنسبة للجزائر لغة ثانية؛ إنها في الواقع مشكلة غريبة أن تكون لغة التعبير وأداة التعبير هي الفرنسية في بلد عربي مسلم، وهذا ما جعل الفرنسية تلعب نفس الدور الذي كانت العربية تقوم به، وأصبحت لغة معترف بها في ميدان التعليم ولغة الثقافة والسياسة، والأدب، وبذلك يمكن القول؛ إن الفرنسية لغة تمتلك مقدرة تعبيرية فائقة، وذات مقاييس جمالية لا يمكن التغاضي عنها، واحتلت الفرنسية في ذلك الوقع ميدانا أكثر اتساعا مما احتله اللغات الأخرى بل إن مستوى تقدمها، وتطورها، وقدرتها على التعبير تفوق أخواتها، وهذا ما لمحناه في عدة مقالات عن كتاب جزائريون كتبوا بالفرنسية، كما أن جنس الرواية من الأجناس الأدبية الحديثة التي حضت بالاهتمام في الساحة الأدبية والذي أهلها أن تكون المرآة العاكسة لواقع المجتمعات العربية، والانتماء القومي وعن الحقائق التاريخية، وربما تكون هذه الحقائق حافزا قويا لإبراز التطورات ولاسيما إذا مورست ضغوطات من طرف المستعمر على الكتاب.

أما عن الإشكالية المطروحة هنا فتكمن في الآتي: ما الأدب الجزائري المكتوب بالغة الفرنسية ؟ أهو أدب جزائري أم فرنسي ؟ وان كان جزائري لماذا كتب بلغة الآخر؟ ولماذا مازال بعض الكتاب يميلون لاستعمال اللغة الفرنسية عن العربية؟

واعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، مع الاستعانة ببعض المناهج الأخرى التي تفرض نفسها نظرا لطبيعة الدراسة، كالمنهج التاريخي مثلا، لأنه المناسب والمساعد للتحليل ووصف الأحداث التاريخية، ومن أهم المراجع التي اعتمدنها في دراستنا هذه نذكر على سبيل المثال: محمد الطمار "تاريخ الأدب الجزائري"، وعبد الملك مرتاض "أدب الجزائري القديم" (دراسة في الجذور).

1-الأدب الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي:

تقول "أسيا جبار" وهي كاتبة جزائرية تكتب باللغة الفرنسية أنها عندما تريد أن تعبر عن أحاسيس أو عن عادات المرأة الجزائرية مثلا "... تجد نفسها أمام مشكلة ترجمة عواطفها وأفكارها العربية باللغة الفرنسية، وأن هناك شيئا ما ينقص الصورة "[1] إلا أن هذه النظرة للعربية لا تعكس طبيعة العلاقة القائمة بين الكاتب أو الأديب باللغة التي يستخدمها؛ لأن الكاتب الذي يكتب بالفرنسية قد تكون له ثقافة ومرجعية يحاول من خلالها إبراز أرائه باللغة التي يرى فيها سبيلا لإيصال أفكاره في فترة ما، ولعل من أسباب الكتابة باللغة الفرنسية أن أجهزة الإعلام الثقافة الفرنسية قد روجت لهذه الفكرة لتظهر أن الثقافة الفرنسية خلفت كتابا بارزين في الجزائر وأن الاستعمار لم يكن كله شرا[2] ، واحتفلوا بكتاباتهم وقدمت لهم الجوائز التشجيعية ليس تقديرا لتفوق الكتاب الجزائريين، ولكن للدعاية وتشجيع الأدب الفرنسي طالما هؤلاء الكتاب يعبرون بلغة فرنسية.

وهذا ما سمح بظهور ظاهرة جديدة في ميدان الأدب الجزائري إذ نشأة طبقة من الكتاب الجزائريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية وبالخصوص موضوعات وطنهم ومشكلاته، يقول "محمد ديب" في هذا الصدد: " قولوا أن أدبا قوميا يظهر الآن في المغرب عامة وفي الجزائر خاصة ".[3]

وبهذا يكون ظهور أول توجه لأدباء كتبوا بالفرنسية لأغراض تخدم وطنهم يبينون من خلاله ما يمارس عليهم من سياسات استعمارية لا إنسانية، فستحاول لغته إثبات الوعي القومي لشخصية الجزائرية كما عبروا من خلال أعمالهم الأدبية أنهم ينتمون إلى وطن له كيان وشخصية وحضارة عريقة، وهذا ما لمحناه في العديد من المقالات والآثار الأدبية للعديد من الكتاب الجزائريين أمثال "الكاتب ياسين" ، فقد عاشت الحركة الأدبية في هذه الفترة نوعا من الجمود نتيجة التباطؤ الناتج عن فقدان التوازن بين قوة العناصر الوطنية ووسائل الاحتلال مما أدى إلى تشتت العقول المنتجة وتشرد الأدباء والشعراء الوطنيون. وهذا ما أدى إلى اندماج بعضهم في حركة المقاومة التي شنها العرب لفترة طويلة ضد الغزاة، وانشغل الناس بذلك عن الأدب والشعر، وكان همهم الوحيد هو نيل السيادة الوطنية وطرد المستعمر.

"وكسدت سوق الإنتاج حقبة كبير، وكأن الأدب أصبح ينتظر عهدا من الاستقرار والهدوء، أو ينتظر بعثا سحريا يشع فيه الحياة لكي ينهض ويتحرك، ويعبر عما يجيش في قلوب الناس من حنين إلى حريتهم المفقودة؛ ومن تحضر للانطلاق والثورة ومن الم يكاد يمزق النفوس هزيمة وبأسا ويقضي عليها خيبة وانتحار".[4] إلا أن الوسط الأدبي لم يخل من بعض الأعمال الأدبية التي كان لها الدور الكبير في "وضع الأسس لرواية الحديثة ومن الأعمال الأدبية في تلك الفترة أعمال أحمد رضا حوحو:

- صاحبة الوحي (مجموعة قصصية) 1954، أدباء المظهر (مسرحية)، عنبسة (مسرحية).
- الحمار الحكيم (مقالات في النقد الاجتماعي) 1953، وبعض المنشورات الجزائرية في الخارج.
- إرشاد المتعلمين: عبد القادر المجاوي- مصر د.ت.
- المناظرة بين العلم والجهل: محمد بن عبد الرحمان إدريس – تونس –د.ت.

2-أسباب الكتابة بالفرنسية:

لا شك أن الناس تعودوا قراءة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، وترجمت معظم الروايات بهذه اللغة إلى العربية، وبات الناس يرددون أسماء كتابها ويعرفون عنهم الشيء الكثير بينما لا يكادوا يعرفون عن كتاب النثر الجزائري الحديث إلا القليل؛ ولعل هذه الظروف التي جعلتنا نتساءل عن أسباب الكتابة بالفرنسية.

إن فرنسا لم تتأخر أبدا في تطبيق سياستها ومخططاتها الاستعمارية، باستعمالها لعدة سبل وأغراض حاولت من خلالها التخلص من اللغة العربية، باعتبارها لغة تحمل في طياتها الشخصية الوطنية والدينية، وباعتبارها لغة القرآن الكريم وهي الأداة المحافظة على الشخصية الوطنية من الزوال؛ وكانت جملة أهداف المستعمر استعمال التعليم الفرنسي كوسيلة أساسية لتحقيق أهداف فرنسا الشنيعة، وبدأت منذ عام 1883 بفتح المدارس لتعليم أبناء الجزائر اللغة الفرنسية؛ غير أن هدفها لم يكن تثقيف وتعليم المواطنين الجزائريين؛ بل كان همها الوحيد إدماجهم في المحيط الفرنسي وفرض الفرنسية والتجنيس عليهم فالمدرسة الفرنسية هي وسيلة لتجريد الشعب من شخصيته العربية الإسلامية، فهمها إفساد عقائدهم وغرس الاحتقار لتاريخهم ولغتهم العربية[5].

فهذه المدارس كانت تعلمهم مع الفرنسيين تعليما فرنسيا محض: يمجد الحضارة الفرنسية ويدرس التاريخ الفرنسي، ويمقت كل ما هو عربي.[6]

كل ذلك كان خطة استعمارية في محاربة اللغة العربية؛ أما عن تحطيم الشخصية الجزائرية فقد عملوا على إبقاء النظام القبلي، وتنمية الروح العنصرية لتمزق شمل الوحدة الوطنية والقومية للشعب الجزائري، كما عمد المستعمر على تعيين أئمة المساجد بحيث لا يختار إلا من يرضى الاستعمار، وبذلك يكون قد حقق غايته في تحطيم قيم الشخصية الثقافية والحضارية الجزائرية العربية الإسلامية، وكسر كل الروابط التي تربط النشء بماضيه عن طريق نشر الجهل بين الشعب.

يقول أبي اليقظان في هذا الصدد هناك عوامل ثلاثة لو سلط عامل واحد منها على الأمة لزعزع ركنها وهد بناءها ، وهذه العوامل وهي الجهل والفقر والفرقة، فالجهل يفقدها شعورها بوجودها وكيف تدب عنه والفقر يفقدها عن العمل ويشل أعضاءها عن الحركة والافتراق يذيب قوتها ويجعلها عرضة للتلف والاضمحلال والهلاك.

لهذا كان من أهم أهداف الاحتلال القضاء على اللغة العربية باحتلال اللغة الفرنسية مكان اللغة العربية تمهيدا لفكرة سياسية استكمل بها استعمار البلاد، والتي تتمثل في إدماج الشعب الجزائري في حضارة وثقافة المجتمع الفرنسي هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أن المستعمر فرض نظامه وسياسته الاستغلالية لإبادة الإنسان الجزائري بشتى أنواع الفقر، والجهل، والحرمان، وضياع الشخصية الوطنية، وذلك بفرض ثقافة غير ثقافته والتي تعتبر دخيلة وغربية ونشرها بشتى الوسائل في البلاد بمفاهيم خاطئة.

وبذلك فرضت الفرنسية على الشعب الجزائري فرضا، باكتساحها جميع الميادين إذ تقول "كريستان عاشور" لقد قام الاستعمار الفرنسي بغية تخليد وجوده بوضع سياسة ثقافية تدريجية تعتمد أساسا على ترسيخ اللغة، لغة النظام ففرضت الفرنسية كلغة تعبير لأي شخص أراد الإدلاء برأيه، لقد استعمل الجزائريون هذا الحق أولا في شكل كتابات ثم بعد ذلك في شكل روايات وإشعار، إن هذه البوادر الأدبية في مفهوما الكلاسيكي تشكل قطعة أساسية في نشأة (أدب ملتزم) أعطى منذ نشأته صيغة سياسية واجتماعية حاضرة في كتابات لا تزال موجودة لحد الآن.[7]

وإذا عدنا إلى بداية الاحتلال سنة 1830 حيث لم تعرف هذه الفترة بروز أدبا مكتوبا باللغة الفرنسية، إذ كانت جميع الكتابات الأدبية آنذاك بالعربية وبرزت في تلك الفترة أسماء مختلفة، فكرا ومنهجا، نذكر في مقدمتها "حمدان خوجة" (1773-1840).

صاحب كتاب المرآة "الذي وضح فيه أحاسيسه ومشاعره لما آل إليه الوضع الجزائر، وعبر عن ذلك في قوله انه لمن الصعب جدا أن أرى في الجزائر ناحية آمنة يطمئن إليها أبناء وطني...إنني أبصر سكانها التعساء يأنون تحت نير الظلم والإبادة وشتى كوارث الحرب...إن قضية الجزائر لخطيرة جدا، لأنها تتعلق بمصير أمة بأكملها...إن تعاسة وطني تسبب في قلقي المستمر وكثيرا ما كنت في تعبيري لهذه التعاسة مكرها عن إيقافي لأترك دموعي تسيل.

إن هذه العبارات لرسائل صادقة نابعة من رجل أصيل أحب وطنه؛ فهذا ليس بجديد عن "حمدان خوجة" فقد كان يحسن الفرنسية وسخر قلمه لذود عن وطنه، و دخل في مواجهات فكرية مع الاحتلال انتهت بطرده من باريس ومن الكتاب الذين عاشوا مواجهات مع الاستعمار الفرنسي الدكتور "الطيب مرسلي" المولود سنة 1856 بـــ "ويزرت" بوهران كتب بعنوان: contribution a la question indigène en Algérie سنة 1884 الذي تحدث فيها عن البؤس في الجزائر وعن الامتيازات التي حضا بها الفرنسيون في الجزائر، حيث يقول: "إن العرب الجزائريين قابلين للتطور ولا يمكن أن يكون العكس، أليسوا بأحفاد الرجال الذين قاموا بتوجيه الغرب"[8].

ولا يخفي علينا أيضا سي محمد بن رحال المولود في 16 ماي 1857 بناردوما لقد كان الرجل مثقف بلغتين (العربية والفرنسية) وكان ينادي بالعدالة والمساواة والاعتراف بالشخصية والثقافة الوطنية الجزائرية، وكذلك تعليم كل الجزائريين وقد خص في كل ذلك مطالبته بتعليم اللغة العربية حيث نجده يقول في إحدى مقالاته إن اللغة العربية لا تدرس في أي مكان بالرغم من أنها لغة الملايين من السكان المسلمين الجزائريين المجبرين على تعلم الفرنسية، هذه اللغة التي لن تعوض أبدا اللغة الأم رغم امتلاك "سي بن رحال" اللغة الفرنسية والعربية إلا أنه أبدي رأي جريء كون اللغة العربية تبقى دائما لغة الأم، وأنه لا يمكن أن تأتي أي لغة في مكانها لما تحتويه هذه الأخيرة من خصوصيات متفردة، ومن جهة أخرى اعتبر الكتاب الذين كتبوا بالفرنسية ذو

مواقف لها وزن وقيمة تجسدت في المواقف السياسة الوطنية، وفي التجريب الجمالي والذي يمكن تسميتهم بالجيل الأول، وكان هذا الجيل منخرطا في الثورة التحريرية وكان يمثل بالفعل صوتها الأدبي الحقيقي والصادق الذي أوصل صورتها إلى العالم حتى أن أخذ "الكولونياليين" "الباريسيين" علق على نجاح أدب "محمد ديب" بأنه متذمرا من شهرته إنهم يلاحقوننا برواياتهم وكتبهم حتى في غرف نومنا في باريس، وقد قيل على هذا الجيل غداة الاستقلال أنه جيل تربى داخل ظروف ثقافية ولغوية استعمارية، وبالتالي فان كتاباتهم بهذه الطريقة واللغة مبررة، وفي الوقت نفسه قيل أيضا بأن هذا آخر جيل يكتب بهذه اللغة.[9]

إلا أن هذا الموقف ليس الوحيد إزاء الكتابة بالفرنسية باعتبار أن لها هدف قومي ساهم في تجسيده فقد غضب "ألبير كامي" من "محمد ديب" لعقوقه: ولم يسمح له أن يشتم الفرنسيين ولغتهم الخاصة مع العلم بأن الكاتب "محمد ديب" اعتبر أن كل كتابنا وفنانينا مقهورين وجعلوا من الثقافة واللغة الفرنسية من أسلحة الكفاح، وتكون هذا الأسلحة وسيلة في سبيل التحرير، وهذا رسم المسار الالتزامي للكاتب الجزائري بالفرنسية ذالك أن فرنسا نست أو تناست أن من تعلم لغة قوم أمن شرهم.

فلم يكن هذا الاختبار إذن من أجل خدمة مستقبل فرنسيا إذا أصبحت هذه اللغة تستخدم للدفاع عن الحريات أو إعلان ما استجد من مواقف، وعلى طول المدى أصبحت اللغة الفرنسية سلاح حرب، يدعم الأدب الوطني.[10]

وبهذا استعملت اللغة الفرنسية كوسيلة لإيصال صوت النضال للعالم لا لغة تخدم المستعمر الفرنسي كما أراد وخطط له، لتبقى الوسيلة متعددة والغاية واحدة.

إن هذه النخبة أمثال "الكاتب ياسين" و"محمد ديب"، و"مولود معمري"، و"مولود فرعون" و"مراد بوريون"، تنتمي إلى عائلات جزائرية عريقة، وغنية مما أتاح لها فرصة للتعليم في المدارس الفرنسية إلى جانب الفرنسيين، والتي تمكن فيها هؤلاء الكتاب من تعلم الفرنسية حيث اكتسبوا فيها جزءا كبيرا من الثقافة الفرنسية مكنتهم فيما بعد من معرفة حقيقة الاستعمار الفرنسي.

رغم إنشاء المدرسة الفرنسية ومحاولة الاستعمار محو الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين والقضاء على لغتهم بإنشاء تلك المدارس إلا أنه أمر بعيد المنال، لأنها درست

الفرنسيين بالدرجة الأولى والجزائريين أبناء العائلات الغنية بالدرجة الثانية، أما بقية الشعب فقد كان محروما من التعليم.

وفي هذه الظروف العصيبة التي عاشها المجتمع الجزائري، لم تفرض اللغة الفرنسية نفسها في الحياة الاجتماعية، فحسب بل تعدت ذلك بكثير لتصل إلى جوانب فكرية، وتعبيرية

وقد ترجمت اللغة الفرنسية إرادة الكاتب الجزائري في صد العدوان الاستعماري ولمحاولته مس الشخصية الوطنية، ومحوا الذات الوطنية إلا أن كل ذلك كان دون إرادته، لأن الكاتب الجزائري تعلم اللغة الفرنسية ليقول أنه ليس فرنسيا بل أنه جزائري المذهب والدينـــ، والحقيقة أن "هناك أوساط ثقافية أدركت أن في امتلاك اللغة الفرنسية أهميته بالغة.

3-أهداف وقيمة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية.

منعت اللغة العربية في المدارس، ومن الاستعمال في الدوائر الإدارية الرسمية وعدت لغة أجنبية عن البلد، ولم يكن يسمح للجزائري إلا بفتح المدارس القرآنية التي يقتصر دورها على حفظ القرآن الكريم، ومبادئ الفقه والنحو، وأما من كان يريد الاستزادة من ذلك فكان عليه الرحيل.

وكان نتيجة هذه السياسة أن انكمش دور اللغة العربية في المجتمع، وحرمت أجيال متعاقبة من الجزائريين من تعلم لغتهم، وهذا ما يفسر أن جيل ما قبل الاستقلال من الروائيين الجزائريين لم يكن يمتلك إلا اللغة الفرنسية كوسيلة تعبير.

فالسياسة التعليمية التي اتبعها الاستعمار عملت على إضعاف مركز اللغة العربية، وعزلها تدريجيا من التعاملات اليومية، وحصرها في الوظائف الدينية التقليدية، وعملت في المقابل على توسيع اللغة الفرنسية وإنشاء مدارس مزدوجة اللغة، عصرية في برامجها لتخريج نخبة من الأهالي، كانت تختار بعناية من أبناء الوجهاء والموالين لها للمشاركة في التسيير والإدارة، ولكي يلعبوا دور الوسيط بينها وبين الشعب وعلى هذا النحو تضاءل دور اللغة العربية في المجتمع الجزائري، وانحصر في مجالات محدودة، في الوقت الذي تعاظم فيه دور اللغة الفرنسية، وأصبحت لغة الإدارة والصناعة والتجارة، والأعمال الحرة مثل الطب، الصيدلية، الهندسة، لذلك أصبح الناس يقبلون على تعليم أبنائهم لهذه اللغة

لأسباب اقتصادية، كوسيلة للانفتاح على التقنية الحديثة واتسع مجال استعمالها مع الوقت ليشمل الأدب والفكر والفن.[11]

لم يتأخر الاستعمار الفرنسي لحظة في تطبيق مخططاته، من أجل القضاء على الشخصية الوطنية في الجزائر، منذ بداية الاحتلال، ومنذ ذلك الحين فرضت اللغة الفرنسية نفسها على المجتمع، مكتسحة جميع الميادين، إذا أصبحت اللغة العربية لا توفر لصاحبها شيئا من التقدم الاجتماعي ولا مجرد الاستفادة من المنافع الضرورية العادية، مما اضطر الأكثرية من الشعب الجزائري إلى تحصيل لغة المستمرة لضمان مزايا مادية قصد مواكبة التحول الاجتماعي الجديد.

وفي غمرة هذه الظروف الاستثنائية التي عاشتها الجزائر لم تفرض اللغة الفرنسية نفسها على الحياة الاجتماعية العامة فحسب، بل وصلت عن طريق التوغل والنمو والانتشار إلى الفكر والتعبير عنه، فالكاتب الجزائري، لمن سيكتب، أي جمهور سيخاطب؟ إذا تعصب للكتابة بلغته فانه يقضي على نفسه بان يتحدث أمام جمهور من الصم، ذلك أن الشعب غير متعلم، ولا يقرا أي لغة...والمتعلمون لا يفهمون إلا لغة المستعمر، إذا لم يبقى إلا مخرج واحد وهو أن يكتب بلغة الاستعمار.[12]

فاللغة الفرنسية انتشرت في الجزائر، ونشأ جيل من الكتاب الجزائريين لا يعرفون اللغة العربية، ولا يمكنهم التعبير عن مشاعرهم، إلا باللغة المستعارة، لغة الحاكمين، وهذا الأدب الجديد قد أثار معركة أدبية وأهتم بهذه المعركة المجلات والراديو الجزائري، وتدور هذه المعركة حول جنسية هذا الأدب، هل هو أدب الجزائري أم فرنسي؟ كذلك تدور حول مصير هذا الأدب.

فالأدباء الناطقون بالفرنسية يعتبرون بأن المقياس للجنسية الأدبية هو التعبير عن الذات الحقيقة، بصرف النظر عن جنسية الأديب، فقال: "إبراهيم غافر" عن الأدب الفرنسي اللغة إن المهم أن يؤدي الكاتب شهادته، وأن يكتب باللغة التي سمحت له الظروف بأن يتعلمها وأن يعبر عن الواقع الحي في بلاده، ويلتقط الصورة الناطقة في أصول بيئته ومجتمعه، وأن تبقى شهادة الكاتب وثيقة ثمينة يخلقها لمن بعده حتى يستمر الأديب في تأدية واجبه المقدس، وأنه ليس من العار أن يكتب الأديب باللغة الفرنسية أو غيرها، ما دام يحتسبها ويسخرها بصيغة أمينة.

ويقول الأدباء الناطقون باللغة الفرنسية بأنهم عرب وبأن أدبهم عربي، كما يقول مالك حداد: نحن نكتب بلغة فرنسية لا بجنسية فرنسية، وأما الناطقون بالعربية، فيعدون الأدب الناطق بالفرنسية دخيلا، وقد نبت في ظروف تاريخية غير شرعية، ويذهب فريق أخر إلى أن هذا الأدب لا بد من أن ينقطع أصله وأن مصيره الزوال بزوال الأسباب التي أنتجه.

فالأدب الجزائري قبل هذه المرحلة كان أدبا عربيا، فلا بد أن يبقى عربيا وهم يريدون وصل الحاضر بالماضي وأمالهم هي أمال ابن باديس وجمعية العلماء للمسلمين، في خلق أدب كامل لا يقتصر على التعبير عن الذات القومية بل يتجاوز هذا النطاق الفني الخالص، إلى اتخاذ إطار عربي تتجلى فيه الذات، وتمارس قدراتها الفنية والجمالية أضف إلى ذلك أهمية اللغة في بناء كيان المجتمع ودورها في تفتح شخصية الإنسان وتميزه وربطه بأصالة ماضيه الحضاري.

فالأدب الجزائري الفرنسي اللغة، قد اهتم بتصوير ظلم الفرنسيين، وإرهابهم للمواطنين وقاوم التعريب والإدماج والفقر والبؤس، والألم الذي عاش فيه الشعب الجزائري في ظل الاستعمار الفرنسي، فهم الجزائريين كان حول كيفية استرجاع حقوقهم، ومحاربة العنف في وطنهم.

ظهر هذا الأدب بعد الحرب العالمية الثانية، وأبرز كتابه، "محمد ديب وميلود معمري كاتب ياسين، مالك حداد"؛ وقد تأثر أغلب هؤلاء بأحداث الاستعمار، ومنهم كاتب ياسين، الذي عاصر معركة سطيف 1945، وقصته نجمة، المكتوبة باللغة الفرنسية.

وعلى الرغم من أن الكتاب كانوا يستخدمون لغة واحدة، هي اللغة الفرنسي، فإن هذه الأخيرة لم تكن في ذلك العهد لغة موحدة، إذا أنها كانت تعكس وتعبر عن مواقف مختلفة ومصائر اجتماعية وسياسية متضاربة، فلغتنا والحمد لله، لغة حية تعادل اللغات الأخرى، من حيث الإمكانيات فمن الضروري أن يعطي الأديب الجزائري للغة القومية العربية المقام الأول، وأن يؤثرها على غيرها، فهذا تكمل شخصيته، وتصح وطنيته.

4-الأدب الجزائري بعد الاستقلال:

لقد ظهرت بعد الاستقلال أشعة أدبية خافتة تكسر ظلمة الواقع الأدبي في تلك الفترة ويمثلها إلى جانب الأدباء المتقدمين عدد كبير من أدباء جيل السبعينات، وما يمكن الإشارة إليه أن السنوات الأولى من هذه المرحلة (1962-1980) تميزت بتوالي الأحداث وتراكم المشاكل وتعددت الطموحات ويمثل هذه المرحلة جيل الشباب الذي تمت عملية تكوينهم في ظروف مستعجلة ناتجة عن الحكم البائد الذي تبع في النفوس شعورا قويا لسد الفراغ الطارئ بالجهود الذاتية الممكنة، وذلك حتى تتمكن الحكومة الوطنية من تحريك دواليب الهيئات الإدارية والاقتصادية وتبعث النشاط في هياكل المؤسسات الاجتماعية والثقافية لتدسيم الأوضاع.

أما في مرحلة السبعينات لا تخلوا من أعمال جيدة مما قد كتبه بعض أدبائها، وما نلمح أنه قد أصاب المستوى الأدبي في بعض جوانبه في هذه الفترة من هبوط هويته إلى درك الرداءة[13]، هذا لا يمنع من ظهور بعض الأعمال الأدبية المحترمة والمكتوبة بالغة العربية، وبالخصوص الروائية منها ونذكر مثلا رواية "ريح الجنوب" لعبد لحميد بن هدوقة والتي كانت أول رواية فنية جزائرية بكل الملامح المعروفة: واقعيا وفنيا وايدولوجيا، وبكل السلبيات أيضا التي لا يخلوا منها أي عمل أدبي رائد، فإن "اللاز" للكاتب طاهر وطار تخطو في مرحلة التأسيس هذه خطوة متقدمة ذات اعتبار، إن لم تكن بالموضوع فبالمعالجة المتطورة وهي تجمع ملامح من أشكال وسلوكيات في واقع الثورة الجزائري (1954-1962) وواقع ما بعد الاستقلال وما أفرزه الوضع من آفات مختلفة (سياسة، ثقافية، اجتماعية)[14].

وإن "ريح الجنوب" لعبد الحميد بن هدوقة أثارت قضايا مثيرة تتصل بالأرض وبالمرأة و بنضال الأفراد من أجل الحياة، والمستقبل كما تعالج الدوافع الشخصية والتصرفات التي تدرك الإنسان ومصيره، ثم تعرض جانب الصراع الإنساني الدائم[15].

5-الكتابة باللغة العربية:

إن أثر الترجمات من الأدب الغربي في النثر العربي الحديث في الجزائر يعود لمقت كثير من الكتاب الجزائريين لهذا الأدب الفرنسي، ولغته باعتبارها لغة المستعمر الذي كان يوسمهم سوء العذاب أولا، وكانوا يجهلون هذه اللغة لأن معظمهم منحدرين من

البوادي والصحاري، إذ كانوا يتعلمون العربية في بيئة بعيدة عن نفوذ اللغة الفرنسي التي كانت مسيطرة على المدن الجزائرية حيث كان نادرا ما تجد كاتبا ولد بمدينة جزائرية كبيرة وهو يتقن العربية ويكتب بها، ولا نكاد نستثني من هذا الحكم إلا طائفة قليلة منهم: ابن باديس الذي ولد بقسنطينة وتعلم فيها والذي حاول تعليم فئة كبير من الشباب اللغة العربية الذين صاروا كتابا وأدباء متمكنين من اللغة القومية[16].

أما إذا ما عدنا إلى الكتاب الجزائريين الذين كتبوا باللغة القومية أدبا عربيا اتجه أغلبهم إلى القصة القصيرة لأنها تعبر عن واقع الحياة اليومي خاصة أثناء الثورة التي أحدثت تغييرا عميقا في الفرد، فكان أسلوب القصة القصيرة ملائم للتعبير وعن الموقف أو عن اللحظة الآتية وعن التجربة المحدود بحدود الفرد، أما الرواية فإنها تعالج قطاعا من المجتمع رحابه واسعة، لشخصيات تختلف اتجاهاتها وتتصارع أهواؤها ومواقفها، إنها تتطلب لغة طيعة مرنة قادرة على تصوير بيئة كاملة[17]، لذلك نجد أن الرواية المكتوبة باللغة العربية كان ظهورها متأخرا إذا قيس ذلك بالرواية المكتوبة باللغة الفرنسية، كما يقول عبد الله ركيبي من مواليد السبعينات بالرغم من أن بذورها ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، ويمكن أن نلاحظ فيها بدايات الرواية العربية الجزائرية سواء في موضوعاتها أو في أسلوبا وبنائها الفني، فهناك قصة مطولة بعض الشيء كتبها أحمد رضا حوحو وهي تحت عنوان "غادة أم القرى" ثم هناك قصة كتبها عبد المجيد الشافعي أطلق عليها عنوان الطالب المنكوب لتليها فيما بعد عدد من الروايات نذكر منها: صوت الغرام لمحمد عزام والحريق لنور الدين بوجدرة وهكذا إلى أن نصل إلى البدايات الحقيقية التي يمكن أن تدخل في مفهوم الرواية التي ظهرت منذ سنوات قليلة أي في السبعينات مثل قصة ما لا تذروه الرياح لمحمد عرعار ثم ربح الجنوب للكاتب القصصي عبد الحميد بن هدوقة التي كتبت فيما يبدو قبل رواية محمد عرعار ولكنها طبعت بعدها والتي يعتبرها مصطفى فاسي أول رواية جزائرية جادة باللغة العربية.

ويرى الدكتور "محمد مصايف" أن المحور الأساسي الذي تدور حوله أحداث هذه الرواية، ليس هو موضوع الثورة الزراعية كما أشار الدكتور عبد الله ركيبي، في كتابه تطور النثر الجزائري الحديث، ولكن تلك النفسية المحافظة التي حملها ابن القاضي من أول صفحة في الرواية إلى أخر صفة منها، وهي نفسية الطبقة الإقطاعية التي عاشت

الثورة الزراعية الجزائرية دون أن تندمج فيها اندماجا كليا، وكل صراع حدث في الرواية مهما كان نوعه وأثره في سير الأحداث إنما كان بين هذه النفسية وبين المجتمع الريفي المتمثل في المرأة كان بين هذه النفسية وبين المجتمع الريفي المتمثل في المرأة والسلطة والثقافة التي كان يمثلها المعلم ومالك إلى حد[18].

فيقصد الدكتور محمد مصايف في قوله أن هذه الرواية لم تندرج ضمن موضوع الثورة الزراعية بل اهتمت بالثورة الجزائرية وقضية المرأة والسلطة والثقافة آنذاك.

ومن الروايات المكتوبة باللغة العربية أيضا بعد روايات الطاهر وطار وهي: الزلزال، اللاز، عرس بغل....وروايات مفتي البشير، وبذلك تعد رواية الزلزال هي ثاني الروايات للأديب الجزائري طاهر وطار الذي انتقل في هذه الرواية إلى ما بعد الاستقلال التي تحمل روايته موضوع الثورة الزراعية..ضد رواسب الماضي ومحاولته للتفوق على نفسه ولكنه يساق إلى نهاية لا يريدها لأن الظروف أقوى منه، ونجد كذلك من النتاج الأدبي بعد الاستقلال مؤلفات لا تقل أهميته عن باقي الروايات الأدبية والتي كان لها دور في إبراز جملة تلك الأحداث في تلك الفترة ورواية "اللاز" لطاهر وطار نموذجا عالج من خلاله موضوعا شائك.

وربما يحدث هذا لأول مرة في الرواية الجزائرية، يعني الإشكالات المعقدة التي صاحبت الثورة الوطنية بكل خلفياتها التاريخية وطبيعة التحالفات التي طرحت على مختلف القوى التي كل يهتم بها استقلال الجزائر أولا: فقد حاول وطار أن يركز قدراته الإبداعية على السلبيات التي صاحبت هذه الأحداث وهي سلبيات ليست في النهاية إلا الوجه الأخر للتناقض الطبيعي الذي يحدث في أي ثورة وطنية بما أنها تضم فئات بشرية غير منسجمة طبقيا بشكل كامل، وقد كان كبش الفدى لهذه التناقضات[19].

كذلك رواية واسيني الأعرج "ذاكرة الماء" و"رشيد بوجدرة" الذي انتقل إلى الكتابة الرواية بالعربية اختار لها مسار العمل السياسي المندمج في قضايا ورهانات المرحلة التاريخية كانت المغامرة مترجمة ومحفوفة بمخاطر التعلق على الحدث من أجل أدب وكتابة تأتي في صورة الجزائر المستقلة؛ روايته "تيميمون" 1994 أين أدى الاجتهاد الجزائر بالخصوص انخراط في كتابة الوعي الجزائري المعاصر بالأحداث، كتبها إبان

اشتداد عمليات الإرهاب متخذا من الصحراء فضاء مفتوحا على مغامرات الزمان والهواجس.

6-الكتابة باللغة الفرنسية:

تعتبر اللغة عاملا مهما لظهور الرواية الجزائرية الجديدة، فبحكم محاربة فرنسا للغة العربية، وبفرضها للغة الفرنسية؛ والثقافة الغربية، فقد دفعت الجزائريين لدراسة تلك اللغة والاغتراف من مناهل تلك الثقافة مما ساعدهم على إثراء تقاليدهم وتراثهم وخلق أدب إنساني يقف في مصاف الآداب العالمية، من هنا نجد أن معظم كتاب الجزائر والروائيون خاصة قد تثقفوا ثقافة فرنسية امتلكوا بها ناصية، للغة التي اتخذوها فيما بعد كوسيلة للكتابة وهذا ما نجده في أعمال كل من (محمد ديب، كاتب ياسين- مولود معمري)، والقائمة طويلة.

إلا أن سنوات "السبعينات" و"الثمانينيات" وما بعدها ظهرت كتابات جديدة وكتاب آخرون أخذوا وتأثروا برواد الرواية الفرنسية الجديدة، فظهرت بهذا مسالة الاهتمام بالكتابة وتطوير علاقة الكاتب بالأدب للخروج من دائرة التبعية للخطابات السياسية والأيديولوجية، وصفت بعد ذلك هذه الكتابات في خانة الرواية الجديدة، لاعتبارات شكلية، وأخرى فنية.

إذن اللغة هي أهم عامل ممهد لظهور الرواية الجزائرية الجديدة، فاللغة الفرنسية هي التي قرأها مثقفين من أعمال الحركة التجديدية في فرنسا، وبالتالي قرؤوها بلغتها الأصلية دون زيادة أو نقصان من قبل المترجمين خاصة وكما هو متعارف عليه بان الترجمة هي خيانة للنص الأصلي، فعند الايطاليين مثلا: (تراد وتوري) مترجم وخائن والتي مفادها أن المترجم خائن، فقد بقي معظم الكتاب الجزائريين يكتبون باللغة الفرنسية، بسبب الولاء المزدوج للحضارتين وثقافتين، ولكن بعضهم قد اختار العيش في فرنسا كل الوقت أو بعضه مثل "محمد ديب" وكتاب ياسين، بل أن الذين بقوا في وطنهم ظلوا ممزقين أيضا وأردوا أن يمزقوا معهم شعبهم، ويحدثوا في وسطه البلبلة الثقافية، وزعزعة الولاء الحضاري، أمثال "مولود معمري"، فكأن بقاءها إنما هو لغرض القيام بمهمة خاصة، تخدم المصالح الاستعمارية التي عجزوا عن تحقيقها مباشرة سواء أرادوا هم ذلك أم لم يريد.

إن كتاب شمال إفريقيا غير الفرنسيين يشتركون في عدد من الموضوعات الهجرة إلى فرنسا بسبب كثرة الولادات والفقر في الجزائر، والصراع الطبقي في شمال إفريقيا وكذلك التنازع العرقي والديني بين مختلف المجموعات والأعراق والأديان مثل العشائر الحضرية، والفلاحين وسكان المدن والبربر والغير ذلك.

الخاتمة:

هكذا استمرت الكتابة باللغة الفرنسية، وباتت تغذي القراء حتى أيامنا هذه وإن كانت ظاهرة التعريب قد دفعت بعض الروائيين إلى التوقف عن الكتابة بلغة الفرنسية فبادر مالك حداد إلى التوقف عن الكتابة بلغة الآخر منذ فجر الاستقلال، تمشيا مع المبادئ التي كان ينادي بها أثناء الثورة، نتيجة إحساسه بالغربة الخانقة عند استعماله اللغة الفرنسية، أما من استمروا في الكتابة باللغة الفرنسية مثل "محمد ديب" فقد اختاروا الهجرة إلى فرنسا وفضلوا الغربة؛ وهناك من اختار طريقا وسطا مثل "الكاتب ياسين" الذي اتجه نحو المسرح الناطق بالعامية الجزائرية المطلقة الممزوجة بالفرنسية، وهناك كذلك من اتجه إلى الكتابة بالعربية.

الهوامش:

[1] ينظر: سعد محمد خضر: الأدب الجزائري المعاصر (دراسة أدبية نقدية)، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1967، ص87.

[2] ينظرعبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، المنظمة الأدبية الثقافة والعلوم معهد البحث الدراسات العربية، 1974، ص 197.

[3] محمد ديب: الثلاثية (الدار الكبيرة، الحريق، الدول)، ترجمة سامي الدرومي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1967، ص 5.

[4] ينظر:أبو قاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 22-23.

[5] أنيس بركات درار: أدب النضال في الجزائر (من 1945 حتى الاستقلال)، ص5.

[6] ينظر:عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر-1954 النهضة الفكرية، النهضة الصحفية والأدبية، النهضة التاريخية، ط2، الشركات الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983، ص20.

[7] Christiane Achour: les toire algérienne de la ianigre française, entreprise algérienne de presse bondes. France phonie 1990 p/113.

[8] Christiane Achour/ anthogee de la littérature algérienne p 22.

[9] أمين الزاوي: الشروق ارن لاين، www.djarairess.com 08-04-2013، الكتاب الأبيض للثقافة الجزائرية ساعة 14:15.

[10] ينظر:احمد الطالب: الالتزام في القصة الجزائرية المعاصرة (في الفترة ما بين 1931-1976)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 89.

[11]ينظر: احمد منور: ملامح أدبية بدراسات في الرواية الجزائري، دار الساحل للنشر والتوزيع، الكتاب (د.ط)، ص 36-37.

[12] ينظر:أحمد طالب: الالتزام في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 177-178.

[13] ينظر:محمد بن سمينة: في الأدب الجزائري الحديث النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر، مؤثراتها، بدايتها، مراحلها، مطبعة الكاهنة الجزائر، 2003، ص95-96.

[14] عمر بن قنينة: في الأدب الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص198.

[15] ينظر: عبد الله ركيبي: تطور النقد الجزائري الحديث، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، معهد البحث والدراسات العربية سنة، 1974-1983، ص199.

[16] ينظر: عبد الملك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر، ميدان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1983، ص325.

[17] ينظر: عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، المنظمة العربية الترقية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1976، ص195.

[18] ينظر: مصطفى فاسي: دراسات في الرواية الجزئرية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000، ص7.

[19] ينظر: واسيني الأعرج: طاهر وطار تجربة الكتابة الواقعية، الرواية نموذجا دراسة نقدية، المؤسسة الوطنية للكتاب الأدبي، الجزائر، 1989، ص37.